من نحن؟

ستظل حاجة الإنسان إلى شيء عقلي وروحي يستند إليه في مغامرة الوجود، ويستعصم به في متاهات حياة شديدة التعقيد ـ أمراً في غاية الأهمية. ومسلم اليوم وهو يعيش تحت ضغوط ثقافية وافدة ومطالب معيشية متصاعدة، يجد نفسه حائراً بين الذات والآخر، والداخل والخارج، والروحي والمادي، والماضي والمستقبل. ولهذا كان لا بد للخطاب الإسلامي الجديد من وضع النقاط على الحروف في كثير من هذه المسائل. وإن القضايا التي لا تقبل درجة جيدة من التحديد تظل قابلة لنوع من الإضاءة وبذل الجهد في توضيحها.

إن الإيمان بالله ـ تعالى ـ بأسسه وأركانه المختلفة بالإضافة إلى أصول الأخلاق الإسلامية وقطعيات الشريعة وثوابتها ـ تشكل السمات الأساسية للهوية الإسلامية، كما ترسم الأطر العامة للانتماء للأمة. وفي زمان تغلب عليه المادية، ويكثر فيه الحديث عن الأشياء الصغيرة والمؤقتة، وتتسع فيه دائرة التفلسف حول كل شيء، لا تكمن القيمة الحقيقة للإيمان فيما نقوله عن أهميته ولا فيما نقوله عن عظمة الإسلام، ولا عن الأشياء التي تجعل أرواحنا معتمة... وإنما تكمن القيمة فيما يصنعه الإيمان فعلاً بهذا الإنسان، وفي مدى تحريره له من الشعور بالاغتراب وبغمره بمعاني الأمل والأمان والاطمئنان. تكون قيمة الإيمان في قدرته على تحريرنا من طموحاتنا الشخصية البعيدة عن رؤيتنا للحياة وعن الهدف النهائي الذي نسعى إلى الوصول إليه. تكمن قيمة الإيمان في قدرته على استرجاع وحدة الأمة وإعادة تجميعها للعمل يداً بيد من أجل قيامها برسالتها واحتلالها للموقع العالمي الذي يليق بها. ليس هذا المطلب بيسير، ومن ثم فإنه يكفي للإحساس بالنصر أن نشعر أننا نمضي قدماً في الطريق إليه. إن الروح

التي تتغلغل اليوم في دماء أبناء هذا القرن روح تسعى إلى تهميش الرؤى الأيدلوجية بكل أطيافها، وجعلها تفقد حيويتها الثقافية، على نحو ما حدث في الغرب وفي الدول التي كانت تابعة للمعسكر الشيوعي في يوم من الأيام. إن فقد العقيدة بوصفها محوراً للانتماء، سيؤدي إلى عواقب وخيمة جداً، تمس عمق الوجود الإنساني. وإن العقيدة لا ترسم للإنسان المسلم الفضاء النظري الذي يحتاجه في علاقته مع ربه ـ جل وعلا ـ ومع الناس من حوله فحسب، وإنما تولِّد لديه القدرة على المخاطرة من أجل تحقيق هدف مجرد وخالص من الشوائب المصلحية المؤقتة، كما أنها توفر فرصة لتجدد طرح الأفكار الكبرى والقضايا العظمى. إنها تدفع باستمرار نحو التشبث بدرجة من المثالية والتعالي على المطالب الاستهلاكية للحياة اليومية. إن كثيراً من المثقفين لدينا يعتقدون أن المزيد من الرفاهية للناس والمزيد من الإصلاحات السياسية والاجتماعية سوف يوفر غطاءً كافياً للإجابة على الأسئلة التي يطرحها الإنسان بشأن مصيره بعد الموت. وهذا ـ ولا شك ـ وهم كبير وهذا الوهم يرتكز ـ في بعض منه ـ على إقدام رواد النهضة العربية قبل قرن ونصف من الزمان على إعطاء «العلم» قيمة مبالغاً فيها إلى درجة توليد انطباع بإمكانية حلول العلم والتقدم التقني والتنظيمي في محل القيم الأخلاقية والإنسانية. وهذا أدى إلى إقصاء « الإنسان المسلم » عن عملية التحول الحضاري البالغة التعقيد والانهماك في الحصول على المزيد من آلات الغرب والمزيد مما يمكن أن يصدره إلينا من مواد استهلاكية. وقد تبين فيما بعد أن التقدم الإيماني والخلقي والارتقاء بالذات من الأمور التي ينبغي أن تُمنح الأولوية في أي حركة نهضوية. وهذا ما تركز عليه الصحوة الإسلامية المباركة اليوم. إن الأمة وهي تخوض معركة الانتصار على الذات في حاجة ماسة إلى حشد طاقاتها وإمكاناتها وتوجيهها نحو أهداف واضحة وغير معجزة. وهذا يحتاج إلى تجديد خطابنا العقائدي على نحو يتم فيه استلهام الرؤية الإسلامية للحياة والأحياء، إلى جانب تحسس نوعية الصياغة التي تجعل ذلك الخطاب أكثر إقناعاً

وجاذبية. ولعلي هنا أبدي حول مسائل الهُوية والانتماء والموروث والمقتبس الملاحظات الآتية:

١ ـ لكل أمة وكل شعب وكل فرد هويته الخاصة به. وهذا يعني أن هناك هويات، لا هوية واحدة. إن للفرد منا هويته الخاصة به على الصعيد الجسمي والنفسي والعقلي والسلوكي، إن شكله ولونه وسماته النفسية ورغباته وأهواءه بالإضافة إلى ثقافته وطريقة تفكيره، ومعالم حركته الاجتماعية وما تترجمه من قيم وتقاليد وعادات.. إن كل ذلك يعبر عن ذات متفردة، يمكن النظر إليها على أنها تشبه دائرة صغيرة منفتحة على دائرة أكبر، وهي أمة الإسلام. هذا الفهم يعني أن بين الفرد وبين الدوائر المحيطة به نوعاً من التشابه الذي يربطه بتلك الدوائر، وهو ما نسميه « الانتماء » . وهذا الانتماء في الرؤية الإسلامية ليس شيئاً منجزاً، كما هو الشأن في الانتماء العنصري عند اليهود ـ مثلاً ـ وإنما هو جهد دائب من أجل التماهي مع السمات والعناصر التي جعلت من أمة الإسلام أمة من دون الناس. إن الهُوية هي مجموعة السمات والخصائص والرموز والذكريات المحفوظة من التاريخ المشترك، بالإضافة إلى الطموحات والتطلعات الموحِدة والمترجِمة للشعور بوحدة الهدف والمصير. إذا كانت العبودية لله ـ تعالى ـ وما تقتضيه من الوقوف عند حدوده والقيام بأمره إلى جانب أصول الأخلاق الإسلامية من العدل والصدق والأمانة والتواضع والوفاء والرحمة.. بالإضافة إلى ما سماه الأصوليون المعلوم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة.. وحرمة قتل النفس والزنا وشرب الخمر.. أقول إذا كانت هذه الأمور تشكل جزءاً مهماً من ملامح هوية الأمة الإسلامية، فإن الانتماء إلى هذه الأمة يعني وعلى نحو مختصر قيام الفرد المسلم بتحقيق هذه السمات في ذاته وسلوكه وعلاقاته. إنه لا يتضامن مع إخوانه وأهل بلده وأبناء أمته، ولا يشاركهم في الإنجازات، ولا يعتز بالانتساب إليهم فحسب، وإنما

يجعل من نفسه صورة مصغرة عن الصورة التي تعتقد الأمة أنه ينبغي أن تكون عليها. وأعتقد أن جزءاً من اهتمامات الخطاب الإسلامي الجديد، يجب أن ينصب على إيجاد وعي ذاتي لدى الإنسان المسلم بمعاني الهوية ومعاني الانتماء والالتزام وما تتطلبه وحدة الهدف والمصير من تكافل وتعاضد واتحاد. إن هويتنا هي ما ينطبع في مرآة عقولنا ونفوسنا بوصفه انعكاساً لوعينا بديننا وتاريخنا وأهدافنا وأزماتنا... وبما أن مستوياتنا المعرفية وتجاربنا الشخصية متفاوتة تفاوتاً عظيماً، فإن هذا يعني أن الهوية ليست عبارة عن دوائر منسجمة ومتلائمة، يتسع الكبير منها للصغير، ويتطابق من خلالها الفرد مع الأسرة، والأسرة مع المجتمع. إن هناك تفاوتاً وتصادماً بين الأفراد ومجتمعاتهم على مستوى الرؤى والقيم والأفكار. وهذه الحالة موجودة لدى أمة الإسلام ولدى غيرها من الأمم. وذلك التفاوت والتعارض هو الذي يجعل مكونات الهوية المختلفة في حالة من التفاعل النشط والدائم. وكلما ارتقى المجتمع في سلم الحضارة، وزادت المنتجات التقنية، وتعاظم تعقد النظم المختلفة ارتفعت وتيرة ذلك التفاعل وطرأ الكثير من التغيير على صورة «الهوية» المنطبعة في أذهان الناس على ما نشاهده في هذه الأيام. هذا يلفت نظرنا إلى شيء مهم، هو أن مكونات الهوية ومحددات الانتماء تنقسم إلى قسمين: مكونات ثابتة ومكونات متغيرة. إن الإيمان والأخلاق الأساسية والأحكام الشرعية الكبرى تشكل ثوابت الهوية. أما العادات والتقاليد والأزياء والرموز والانطباعات المكوَّنة عن التاريخ المشترك إلى جانب ترتيب سلَّم القيم والطموحات وطبيعة العلاقة مع الآخر.. فإنها تظل قابلة لنوع من التحوير والتغيير، وقابلة أيضاً لاكتساب أبعاد جديدة، كما أنها قابلة للعديد من التفسيرات المتباينة. وبين القسمين مناطق برزخية ورجراجة، فعلى حين أنك ـ تجد ـ مثلاً ـ من يعد تفسيراً معيناً للفتوحات الإسلامية، أو الالتزام بزي معين يشكل أحد المفردات الثابتة للهوية، يرى آخرون أن هذا مما يخضع

للاجتهاد، ولا ينبغي التوقف عنده. ونحن هنا لا نتحدث طبعاً عن أولئك الذين يتجاوزن الثوابت والأصول الكلية، ويجعلون من الهوية شيئاً سائلاً قابلاً لكل التشكيلات، وإنما نتحدث عن التباين في فهم الهوية في الدائرة الإسلامية، وعلى مستوى الصحوة وطروحاتها الفكرية. على الخطاب الإسلامي الجديد أن يركز في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا على ما هو أساسي في قضية الهوية وألا يستهلك طاقته في القضايا الخلافية والجزئية والكمالية. وأعتقد أن إدراك ما هو أساسي في مرحلة ما لا يتم من غير إدراك حسن لطبيعة المشكلات والأزمات التي تعاني منها الأمة اليوم. وتأتي مسألة الأخلاق والسلوكات في رأس الأولويات على هذا الصعيد نظراً للتراجع الظاهر الذي تشهده الهوية في هذا الشأن.

ويلي ذلك موضوع التعاون والتضامن والاهتمام بالشأن العام والعمل من أجل خير المجموع.

٢ ـ حين تكون الأمة في حالة إقبال وازدهار، فإنها لا تطرح التساؤلات التي تتعلق بذاتها وانتمائها وهويتها. إنها مشغولة بالابتهاج بالمكاسب والانتصارات التي تحققها. لكن حين تدخل الأمة في أزمة، أو يصبح التخلف داء متوطناً، فإن الناس يجدون أنفسهم مضطرين للتساؤل عن نوعية المعتقدات والنظم والسلوكات والسياسات التي أدت بهم إلى الولوج في النفق المظلم. إن الهوية أشبه شيء بالصحة، لا يسأل الناس عنها ولا يدركون أهميتها إلا إذا فقدوها، أو باتت مهددة. وهكذا فالسؤال عن الهوية مشروع، لكنه مؤشر على الاعتلال. ومن النادر أن تقول أمة: « من نحن؟ » ثم تعثر على جواب كافٍ شافٍ لهذا السؤال الصعب. إنه من نوع الأسئلة: لماذا أحترم أبي وقد فعل بي كذا وكذا؟ ولماذا أكرم ضيفي وهو من قوم لئام؟ ولماذا أصفح عن فلان وهو لا يستحق الصفح؟.

إن كل شيء يصبح موضع تساؤل يدخل في امتحان، وقد ينجح في ذلك الامتحان وقد لا ينجح، لكن من العسير جداً أن يحقق فوزاً يكون موضع إجماع.

من المهم في هذا السياق أن نكون على وعي بأن الجواب الأساسي على تساؤلاتنا حول الهوية وحول الأهداف الكبرى وحول العلاقات مع الآخرين، ينبغي أن يكون جواباً عملياً لا جواباً نظرياً. إنه يكمن في الإنجازات التي نحققها على الصعيد العقلي والأخلاقي والصناعي والعمراني عامة. وإن في العالم أمماً كثيرة لا تعي مفردات هويتها، ولا تحتاج إلى ذلك بسبب التقدم الذي تحققه على مختلف الصعد. نحن لسنا ضد الوعي الذاتي ولا ضد تعميق الفهم والتبصر بشأننا العام، لكن نتائج ذلك حين يتم تكون محدودة إذا لم نشعر بأن إنجازاتنا على الأرض صارت شيئاً ملموساً. الإبداع في الإنجاز حين يتم على هدي الشريعة الغراء هو نفسه إبداع في تجديد الهوية وإحيائها وتفعيلها. وهذا القول مبني على رؤية واضحة، هي أن القصور الذاتي والتحلل الداخلي هو أساس التخلف في العالم الإسلامي. وهذا التخلف هو الذي يغري بعض النخب لدينا بالقيام بحركة واسعة لتشريح الهوية ومهاجمتها والبحث عن تهجينها من خلال الاقتباس من الثقافات الأخرى. ولن يزول شيء من هذا من غير حصولنا على تقدم حضاري يمكن شرحه والحديث عنه.

قبل أربعين سنة من الآن كان كثير من المثقفين في معظم البلدان الإسلامية ينظرون إلى الشباب الملتزم على أنه لا يصلح للتفوق إلا في الدراسات الشرعية. وخلال عشرين سنة أثبت شباب الصحوة من خلال الجهد الصامت والعمل الدؤوب عدم صحة هذه النظرة، حين كثفوا وجودهم في الكليات العملية والجامعات، وحازوا قصب السبق في أكثر الأحيان.

٣ ـ لن يأتي اليوم الذي يستغني فيه الناس عن العودة إلى الماضي مهما ادعوا أنهم

مستقبليون، ومهما شنعوا على المتمسكين بالتراث؛ وذلك لأن ذاتنا الحضارية تكونت عبر الاتصال بالماضي وعبر التشبع بالتراث بكل معطياته ورمزياته. ولا أعني بالتراث هنا نصوص الكتاب والسنة، فهي في نظري ليست من التراث. وإنما نعني بالتراث ما أنتجه الآباء والأجداد من أفكار ومفاهيم، وما تركوه من خبرات من خلال تفاعلهم مع نصوص الكتاب والسنة وتفاعلهم مع كليات وأصول الدين المجمع عليها. ولهذا فإن من الطبيعي أن يكون في التراث الغث والسمين والمقبول والمرفوض. وهذا لا يعني أبداً الاستهانة بالجهود العظيمة والإنجازات الباهرة التي تحققت في ظل حضارتنا الإسلامية الزاهية، وإنما يعني محاولة وضع الأمور في نصابها. فكما أننا اليوم لا نتلقى بالقبول كل اجتهادات علمائنا وقادتنا في أمور الدين وشؤون المعيشة وإدارة الصراع بيننا وبين الآخرين.. فإننا لا نعتقد أيضاً بعصمة السابقين ولا بامتلاكهم الرؤية الكاملة للإصلاح والتقدم؛ لأن هذا ليس من شأن أحد بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وإذا تأملنا في موقف الأمة من تراثها اليوم وجدنا العديد من الاجتهادات والاتجاهات الغالية، ولعلي هنا أركز على أهمها، وهو اثنان:

أ ـ في أبناء الأمة الكثير من المثقفين الذين تشبعوا بالثقافة الغربية في مختلف التخصصات، ولم تتح لهم الفرصة للاطلاع بما يكفي على الثقافة الإسلامية، ومن هنا فإن منطلقاتهم الثقافية وأسس التفكير لديهم صارت بعيدة عن الأصول التي يبني عليها المفكرون المسلمون، وعن الأطر التي يعملون داخلها. وقد صار لهؤلاء تأثير لا يستهان به في الساحة الثقافية العامة. ومعظم هؤلاء وجدوا أنفسهم بطريقة أو بأخرى منهمكين في التنظير لقضايا كثيرة، تحتاج إلى مقدار كبير من ثقافة شرعية، هم أفقر الناس إليها. وقد طرأ في الحقيقة تحول جذري في موقف هؤلاء من التراث ومن الوافد الأجنبي إلى درجة قلب الأمور رأساً على عقب، على نحو ما أشار إليه طارق البشري

حين قال: «كنا في الماضي نقف على أرض الموروث، ونتحاور فيما يصلح لها من حضارة الغرب وأدواته لنُدخله عليها. ثم صرنا أو صارت كثرتنا تقف على أرض الوافد أو أرض خليط، ونتحدث عن التراث بضمير الغائب، ونتحاور فيما نستحضره منه. نحن نتساءل عما نستدعي من التراث بعد أن كان آباؤنا يتساءلون عما يأخذون من الوافد»[1].

وقد وصل الأمر ببعض مثقفي هذا التيار إلى النظر إلى التاريخ والتراث على أنه يشكل نوعاً من العائق في فهم العصر، والتأكيد على توسيع تاريخية كثير من النصوص والأحكام الشرعية من أجل تقزيم صلاحيتها للتطبيق في الأزمنة والأمكنة المختلفة وتقليص سلطتها في توجيه حياة المسلمين. وانتهى الأمر بواحد من أبرز رموز هذا التيار « عبد الله العروي » إلى الجرأة على طرح اقتراح القيام بقطيعة مع التراث الفكري للقرون السابقة، وذلك بسبب كونه قاصراً عن منحنا الرصيد المعرفي الملائم لمواجهة الأسئلة التي يطرحها الوضع الحالي للبلدان العربية. ويتعجب الرجل ممن يدعو إلى رفض الأفكار المستوردة بعد مرور أكثر من قرن على النهضة والمصلحون عاجزون عن السباحة في غير محيط الأفكار والنظريات الغربية. إن الداعي إلى ذلك يتفوه بكلام فارغ لا معنى له، ولا يعود عليه بشيء ملموس. والرفض للأفكار المستوردة مخالف للمنطق والتاريخ واختبار الدلائل؛ وذلك لأن رباطنا بالتراث الإسلامي انقطع في واقع الأمر في جميع الميادين[2].

قد ساد اعتقاد قوي لدى هذا التيار بأن النموذج الحياتي الذي يقدمه التراث الإسلامي فقد دورته السياسية والتربوية والاقتصادية، وبات منغلقاً على نفسه، يدافع

(1) الخطاب العربي المعاصر (٣٤).

(2) انظر: لماذا أخفقت النهضة العربية؟ (٢٨٢ ـ ٢٨٦).

عن وجوده بعد أن تراجع إلى خط دفاعه الأخير بوصفه ثقافة شعبية مغلوبة ومقهورة. ومن هنا فإن الانتماء إلى ذلك التراث، هو انتماء إلى شيء ميت ومعزول. ومحاولة إحيائه من أجل إنعاش الحياة المعاصرة ستكون مكلفة ومتكلفة وغير مجدية! وبعض من ينتمي إلى هذا التيار يرى في الإبداع مخرجاً للأمة من أزماتها، ويرى عدم وجود فرق بين استيراد النماذج الغربية وبين محاولة استرجاع نموذج مجمع الخلفاء الراشدين، حيث تسعى كل محاولة منهما إلى إحضار نموذج كلي شامل منتزع من سياقه التاريخي والاجتماعي ثم زرعه قسراً في بيئات مغايرة. إنه التقليد الذي لا ينطلق من الواقع ولا يبدع من أجل المستقبل. الانطلاق نحو الأمام عند هذا التيار لا يكون أبداً من خلال بوابة الماضي!!.

ب ـ لدينا في المقابل على صعيد الصحوة خطاب إسلامي ينزع نزوعاً شديداً نحو الماضي، ويلتمس فيه الأجوبة على تساؤلات الحاضر، والحلول للمعاناة اليومية للإنسان المسلم. ولعلي أبدي حول هذا الخطاب الملاحظات التالية:

١ ـ يمكن القول: إن المنهجية الإصلاحية تقوم في الأساس على نصوص الوحي وعلى الكليات والثوابت في الشريعة الغراء. وهي بحمد الله واضحة ومحددة، لكن الذي دلت عليه الخبرة هو أن الثقافة تشبه الكائن الحي، فكما أن الكائن الحي ينكمش وينكفئ على نفسه حين يتعرض للهجوم كذلك الثقافة تنغلق على ذاتها وتتشبث بأصولها وجذورها حين تشعر أنها باتت معرضة لمخاطر الذوبان والانمحاء. وهذا ما نلاحظه اليوم عند بعض صانعي الخطاب الإسلامي حيث إنهم من أجل الدفاع عن الذات الثقافية والإقناع بصلاحية المنهجية الإسلامية لتحقيق النهضة المنشودة يعمدون إلى الماضي بوصفه حاملاً لتجربة رائدة وناجحة على صعيد التقدم والازدهار. وقراءة التراث لدى هؤلاء تتم من أفق التهديد الخارجي أكثر من أن تتم من أفق المنهج الذي

نؤمن به أو أفق ما نعرفه من سنن الله ـ تعالى ـ في الخلق. إن هذا الفريق من اللائذين بالتراث يقوم بما يشبه ما يقوم به قائد كبير يحضِّر شعبه وجيشه لصد عدوان خارجي وشيك. إنه يذكِّر الناس بأعراقهم النبيلة وأحسابهم الشريفة، كما يذكِّرهم بمآثر الآباء والأجداد وبإنجازاتهم وانتصراتهم الهائلة التي حققوها. هذا يعني أن التراث يستخدم بوصفه محفزاً وداعماً وليس في هذا ما يعيب إذا تم وفق شروط معينة.

٢ ـ مشكلة الغالين في العودة إلى الماضي أنهم يقعون وهم يصورونه للأجيال الجديدة في عدد من الأخطاء المنهجية، فهم يقرؤون ذلك الماضي على نحو انتقائي، حيث إنهم يُظهرون الصور المشرفة، ويتجاهلون صور الانكسار والهزيمة وكثيراً مما يشكل خروجاً على المنهج الرباني الأقوم. وهم إلى جانب هذا يقعون في مصيدة المبالغة والتهويل. إنهم يعطون للأشخاص والمواقف والبطولات والنظم والأفكار والأساليب مزايا وفضائل ليست لها. وإذا استمعت إلى كثير من وعاظ اليوم الذين يظهرون على الفضائيات والشاشات فإنك ستدرك معنى ما أقول. وهم بهذا يشوهون رؤية المسلم المعاصر للتراث وللتاريخ. ويجعلون اكتشافنا لأسباب تدهور الحضارة الإسلامية وأخذ العبرة مما جرى شيئاً في حكم الممتنع.

٣ ـ الغالون في العودة إلى الماضي ينظرون إلى الكون نظرة جامدة إنهم يضعون بين قوسين كثيراً من التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها الأمة عبر تاريخها المديد. وبهذا فإنهم يظنون أن أسلوباً في الحكم والإدارة أو معالجة بعض المشكلات، حقق نجاحاً في الماضي يمكنه أن يحقق عين النجاح في الحاضر والمستقبل. وهذا يجعل كثيراً من جهودهم ينصب فعلاً على فهم ما تم في الماضي عوضاً عن أن يحاولوا فهم ما يجري الآن في العالم من حولنا والاستفادة منه في تحسين أوضاعنا. ولا شك في أن هذا غير سديد؛ فقد مضت سنة الله ـ تعالى ـ ألا تتسع نظم مرحلة سابقة

لضبط أوضاع مرحلة لاحقة. ومن شأن الإنسان أن يستهلك الأفكار والنظم والأساليب، ويبحث باستمرار عما هو أكثر جدَّة وأفضل كفاءة.

٤ ـ بعض الغارقين في التراث يكون موقفهم ملتبساً، حيث إنك تجد الواحد منهم يقضي عمره وهو يسرد أمجاد السابقين وبطولاتهم دون أن يتعلم أو يبذل أي جهد في فهم كيفية توظيف دلالاتها الرمزية في النهوض بأحوالنا. إنه لم يدرك المعنى العميق لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[1]. بعض هؤلاء تجده وقد أفنى زهرة شبابه وهو ينتقل من كتاب إلى كتاب، ومن شيخ إلى شيخ.. وبعد عشرين أو ثلاثين سنة من هذه الحالة، لا يعرف ماذا يفعل بما حصله من علم لأنه يعتقد أنه ما نضج بعد، ولديه هاجس دائم من أن يتزبب قبل أن يتحصرم! إنه لا يؤلف ولا يدِّرس، ولا يوجّه... لأنه لا يعرف أن النفع الأساسي لأي علم لا يظهر إلا إذا اتصل بحياة الناس، وساعدهم على إصلاح أمور دينهم ومعاشهم. وكثير من هؤلاء تجده غارقاً في مسائل جزئية في العقيدة والفقه والتجويد.. معرضاً عن محاولة فهم كثير من النوازل التي تحتاج إلى فقه واجتهاد وفتوى. والحجة الجاهزة هي أن هذه الأمور صعبة، أو تحتاج إلى مجمع فقهي أو لجان ودعم مادي... وما درى أن عمل المجامع لا يقوم من غير الأفكار والآراء التي يقدمها الأفراد عبر جهودهم الشخصية.

وبعض الغاليين في التمسك بالماضي منطوٍ على نفسه معرض عن الجديد لأن الزمان زمان جهل وفتن ومصالح وزمان هرج ومرج؛ والناس يحتاجون إلى إخلاص وتقوى، وليسوا في حاجة إلى اجتهادات وفتاوى جديدة.. وعلاقة هذا الفريق بالماضي مضطربة ومبهمة، إنه لا يعرف ماذا يأخذ، وماذا يدع، كما لا يعرف لماذا أخذ ما أخذه،

(١) سورة البقرة: (١٣٤).

ولماذا ترك ما تركه. والتشاؤم لديه، والشكوى من كل شيء هو سيد الموقف!

ما الذي على الخطاب الإسلامي الجديد أن يقدمه لترشيد موقف الغالين في الإعراض عن التراث والغاليين في الانغماس فيه؟.

إن هذا السؤال كبير، وهو يحتاج إلى جواب طويل عريض إذا ما أردنا أن نضع النقاط على الحروف، لكن حسبي أن أشير إلى القضيتين التاليتين:

أ ـ نحن أمة ذات غنى كبير في تراثها على مقدار ما هي فقيرة في حاضرها. ولا شك في أن الفرق كبير بين أمة تقود العالم قروناً وبين أمة تأتي في مؤخرة القافلة في أمور غير قليلة. ولهذا فإننا بحاجة إلى تواصل مستمر مع ماضينا ومع تراثنا لا لأننا أسرى الحنين للأيام الحلوة، ولا لأننا نعتقد أن الانشداد إلى الماضي أفضل أو أنفع من الانخراط في الحاضر ومعاناة شؤونه وشجونه، وإنما لأن كثيراً من تراثنا يقدم الأصول والقواعد الأساسية للثقافة التي ينبغي أن نتشبع بها. كما أننا نريد أن نفهم جذور الواقع الذي نعيش فيه، كما نريد أن نعرف الأسباب الحقيقة وراء حركة التاريخ والصانعة لها. إننا لا نستطيع أن نفهم أي شيء على نحو دقيق إلا إذا فهمنا تاريخه. هذا يعني أن العودة إلى التراث لا ينبغي أن تكون من أجل الاهتمام بسرده وترديده والتغني به، وإنما من أجل فحصه وتحليله وفهم نقاط قوته ونقاط ضعفه.

ومهما كانت القراءة التي سنقوم بها متقنة ودقيقة، فإن علينا أن ننظر إليها على أنها قراءة اجتهادية، والموقف منها ينبغي أن يظل مفتوحاً. إن على المثقفين المسلمين أن يقوموا بمراجعة التراث وقراءته قراءة نقدية متعمقة في إطار المنهج الرباني الأقوم، وما يعرفون من طبائع الأشياء وسنن الله ـ تعالى ـ في الخلق. وأعتقد أننا إذا تسلحنا بقدر كافٍ من الموضوعية سنظل أقدر من غيرنا على القيام بهذه المهمة. وإذا لم نفعل ذلك، فلا ينبغي لنا أن نعتب على من يقوم به من أفق رؤية ليبرالية أو علمانية أو اشتراكية...

ولا بد لإنجاز هذه المهمة من تقسيمها إلى أصغر وحدات ممكنة، ثم نقوم عبر مراكز البحوث وأقسام الدراسات العليا في الجامعات والأعمال الشخصية الحرة بتناول تلك الوحدات بالدرس والتحليل. يجب أن يقرأ التاريخ السياسي على حدة، كما يجب أن نفعل مثل ذلك مع التراث الفقهي والاقتصادي والاجتماعي والتربوي.. وينبغي أن يقرأ كل اختصاص من هذه الاختصاصات في مستوى زمني محدد، كأن تقول: التراث الاقتصادي في عهد الراشدين أو في زمان العباسيين أو العثمانيين وهكذا... أما القراءة بالجملة وإصدار الأحكام العامة المبنية على بعض الانطباعات الشخصية والقراءة المبتسرة المستعجلة فإنها تضر أكثر مما تنفع، وعدمها خير من وجودها.

إن حضور الدين في حياة المسلمين السابقين ـ كما هو شأن الحاليين ـ والتزامهم بتعاليمه أثناء أنشطتهم المختلفة لم يكن في كل الأوقات وفق ما هو مطلوب؛ قد كانت هناك أهواء وشهوات ومواقف خاطئة واجتهادات غير مسددة، ومن كل ذلك صُنع التاريخ. إن الناس يندفعون بالبديهة وعلى نحو خفي إلى جعل الدين جزءاً من ثقافتهم العامة عوضاً عن أن يكون مهيمناً عليها. وهذا يعني أن الناس كثيراً ما يتجاوزون الآداب الشرعية في سبيل ظهورهم بمظهر الحريص على الوفاق الأهلي أو في سبيل تحقيق مصالحهم الشخصية أو رغباتهم الخاصة.

هذا كله يلزمنا أن نتعلم متى نصغي إلى صوت الماضي، ونحتفي به، ومتى نتجاهله. ونحن قادرون على هذا بما نملكه من تعاليم الشرع الحنيف. علينا ألا نسمح للطريق القديم ومدلولاته بأن يمنعنا من شق طريق جديد يحقق الخير للأمة، ويخدم مقاصد الشريعة، ولا يتنافى في الوقت ذاته مع ثوابتها وأحكامها القطعية. إن الآفاق تمتد والمعارف تتسع، والخبرات تتراكم، والمشاهد تزداد غنى، والتقنية تنمو، ما يجعل قدرة التاريخ على صياغة الحاضر وضبطه في تناقص مستمر. وهذا يحتم على صانعي

الخطاب الإسلامي أن يمتلكوا روح الانفتاح على الجديد واعتباره نافعاً ومفيداً ما لم يقم الدليل على مخالفته لمبدأ أو تفويته لمصلحة مشروعة.

ب ـ التعامل مع التراث ومع الماضي يواجه دائماً مشكلة فقد التوازن، لأن مقدرتنا النقدية محدودة، ولأن معرفتنا بما يجب أن نقتبسه من التراث، وبما يجب التخلي عنه هي دائماً معرفة غير تامة. ولهذا فإن من غير المستغرب أن نرى من وقع في أسر الماضي، وغرق في بحر التراث، فلم يتمكن من رؤية الواقع، وبالتالي فإنه لم يستطع توظيف ذلك التراث في خدمة قضايا الأمة، كما لم يستطع جعله أداة للتربية الصالحة. الانقطاع عن التراث وعدم زجه في خضم المعركة الحضارية، يدفع بالأمة لأن تصبح تابعة للغرب؛ إذ تفقد آنذاك محرضاً مهماً على الوعي بالذات وعلى التمنع من الذوبان في الثقافات الأجنبية. انطلاقاً من هذا وذاك نشأت فينا الدعوة إلى منهجية في العمل تجمع بين « التراث والمعاصرة » وهي دعوة متفق على صحتها والحاجة إليها على المستوى النظري، لكن عند التنفيذ سنجد أنه يكتنفها الكثير من الالتباس والغموض. والتجديد في الشأن السياسي يشكل نموذجاً واضحاً لهذا الموضوع، حيث تتباين الخطابات الإسلامية فيما بينها تبايناً واضحاً في العديد من المسائل الجديدة، مثل الانتخاب وأشكال الشورى وتنظيم المعارضة وكيفيات تداول السلطة. ولا يبتعد عن هذا كثيراً التباين في المجال التربوي والتعليمي حيث نجد في الخطابات الإسلامية المختلفة الكثير من الجدل حول القدر الذي ينبغي أن تشتمل عليه المناهج التعليمية من العلوم الشرعية والعلوم التراثية عامة.

حتى ينجح الخطاب الإسلامي الجديد في تجسير العلاقة بين الأصالة والمعاصرة فإنه في حاجة إلى وضوح الرؤية في العديد من الأمور، منها:

* المشكلات التي يعاني المسلون اليوم مثل ضعف الالتزام والبطالة والإعراض

عن القراءة والجهل والفقر والتبعية والتخلف العلمي والتقني وما شابه ذلك... إن فهم هذه الأمور على نحو جيد، يعني أننا عرفنا الداء، وبدأنا نبحث عن الدواء، وحينئذ فقد نجد الدواء في فكرة قديمة، وقد نجده في رأي جديد.

*الوضعية التي نريد للأمة أن تصير إليها على الصعيد السياسي والاجتماعي والتربوي والاقتصادي.. وإن شئت فقل معرفة الأهداف القريبة والبعيدة التي نريد للأمة بلوغها، وبلورة تلك الأهداف بأكبر قد ممكن من التحديد. إن غموض الوضعيات القائمة والأهداف التي نسعى إليها، يؤدي إلى التوظيف العشوائي للتراث، والذي كثيراً ما يعني الإعراض عن أجزاء مهمة منه، أو الاهتمام بمعطيات تراثية، لا تساعدنا في النهوض بواقعنا.

* تحديد الأولويات في المرحلة الراهنة من أجل استدعاء ما يساعد على خدمتها من المخزون التراثي. وهذا أمر شاق للغاية. إن المصلح مثل الطبيب الذي يعالج مريضاً يعاني من عدد من الأدواء. إن عليه أن يضع خطة علاجية، تقوم على البدء بمعالجة المرض الذي يهدد حياة المريض، مثل النزيف. وهكذا المصلحون يحتاجون إلى تحديد المجال الذي إن تم إحراز تقدم فيه انعكس إيجاباً على باقي المجالات، أو تحديد الحقل الذي يشكل إصلاحه البوابة للدخول إلى غيره من الحقول. هذا المجال أو الحقل قد يكون السياسة، وقد يكون التربية، وقد يكون الاقتصاد. وكثيراً ما تختلف الأولويات بين بلد إسلامي وآخر.

* إن التراث كُتب بلغة تتباين كثيراً أو قليلاً مع اللغة التي تتقبلها الذائقة الثقافية اليوم. وهذا ليس على مستوى الأسلوب فحسب، وإنما على مستوى المضمون أيضاً؛ ففي الكتب التراثية أقوال وتعليلات وترجيحات غير صحيحة، وفيها معارف ومعلومات باهتة، لا تثير المتلقي، ولا يرى فيها ما يلبي حاجاته.. وفيها أيضاً معارف

تنطوي على المبالغة في إعطاء الأهمية لأمور لا يرى المسلم المعاصر أنها مهمة إلخ.. وهذا يعني أن التراث حتى يظل جزءاً من هوية المسلم، أو حتى يبقى قادراً على تغذية هذه الهوية، وحتى يمكن الانتفاع به على أحسن وجه، فإنه يحتاج إلى نقد وإلى تنقية وإلى عرض بأسلوب جديد.

٤ ـ من العسير أن نجيب عن سؤال: « من نحن » أو ما يشابهه من أسئلة في محاولة رسم حدود الذات من غير نوع من الوعي بذلك « الآخر » الذي يقود الحضارة اليوم، ويفرض شروط والتقدم سماته في كل أنحاء العالم، وأعني به «الغرب» بمنهجيته السياسية والثقافية والاجتماعية.. ولا أريد الحديث في هذا الأمر إلا على مقدار ما يتعلق بمسألة الهوية والانتماء ومسألة الاقتباس من الآخر. وهذه بعض الملاحظات في هذا الشأن:

أ ـ لا أعتقد أن فينا من يرى أننا مكتفون ذاتياً ومستغنون عن الغرب، وعن تعلم بعض ما عنده والاستفادة من بعض مخترعاته ومكتشفاته. وكيف يمكن أن يكون هذا وأبناؤنا يدرسون في جامعاتهم، وأشياؤهم تملأ البيوت والأسواق، وخبراؤهم يجوبون العالم؟

لا يعني هذا بالطبع أن الغرب لم يستفد منا في الماضي. إن الحقيقة أنهم لم يخجلوا من التتلمذ علينا حين كنا متفوقين عليهم، ويجب ألا نخجل من ذلك الآن لأنهم فعلاً يملكون ما لا نملك، ويعرفون ما لا نعرف. ولا يعني كل هذا أيضاً أن الغرب ليس بحاجة إلى بعض ما لدينا. إنه فعلاً في حاجة ماسة، فنحن نملك الرؤية والمنهج في أهم قضية تمس حياة الناس، وهي العلاقة بالله ـ تعالى ـ والمصير بعد الموت.

ب ـ هل إذا أخذنا مبادئ الغرب في السياسة والاجتماع والاقتصاد فإن أحوالنا ستمضي نحو التحسين؟

هذا في الحقيقة ما ظنه كثير من زعماء الإصلاح لدينا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين. إنهم كانوا يستخدمون مصطلحات مثل «التقدم» و «التمدن» و «الشخوص إلى الأعلى»... ويستحضرون في وعيهم عند إيرادها دلالات هذه الكلمات في الحياة الغربية بدليل سوقهم الأمثلة والنماذج التي اطلعوا عليها في سلوكيات الغربيين بوصفها تجليات للازدهار والتحرر والارتقاء. وأعتقد أن في هذا نوعاً من التبسيط المخلّ. إن المبادئ ليست مثل بذور الزيتون، نلقيها في أرض، ونتركها سنتين أو ثلاثاً حتى إذا اشتدَّ عودها قلعناها ونقلناها لنزرعها في أرض أخرى. إننا إذا قلنا هذا نكون قد ألغينا الصيرورة التاريخية والتحولات الاجتماعية والصناعية التي مر بها الغرب، وألغينا الفروق العديدة بيننا وبينهم. إذن الارتقاء بأنفسنا وإصلاح أحوالنا يحتاج إلى ما هو أكثر من تقليد الغرب والاقتباس منه، إنه يحتاج إلى توفير الظروف الموضوعية والبيئية، وإلى توفير النظم التي تساعد على تنمية القيم والأخلاق الإسلامية في نفوس المسلمين وسلوكاتهم وعلاقاتهم. وتوفير هذه الأمور يحتاج إلى وقت وإلى مجاهدة ومثابرة. وإنما نقول هذا الكلام لأننا نعتقد أن المبادئ لا تعمل في فراغ، إنها تحتاج إلى أطر وظروف وقوانين عامة، وهذا ما علينا أن نوفره إذا أردنا أن نتحدث عن إنجازات جيدة. وهذا كله يتكئ إلى حد بعيد على مدى معرفتنا بأنفسنا وحاجاتنا وتطلعاتنا.

ج ـ من المهم جداً في علاقتنا مع الغرب وفي فهمنا لأوضاعنا أن نفسِّر ظاهرة الاستعمار الأوربي لبلاد المسلمين التفسير الصحيح؛ لأن التفسير الخاطئ سيؤدي إلى اضطراب فكري خطير. إن كثيراً من المسلمين يعتقدون أن تخلفهم المادي اليوم ما هو إلا نتيجة للاستعمار الذي تعرضت له ديار الإسلام. إن الأوربيين نهبوا البلاد، وخربوا الأخلاق، وحولوا الدول المستَعمَرة إلى أسواق استهلاك لمنتجاتهم. هذا الكلام ليس بعيداً عن الصواب، لكن إذا نظرنا من زاوية أخرى فإن علينا أن نقول: إن الانحطاط

الذي وصل إليه العالم الإسلامي في سائر أوضاعه وأحواله هو الذي أغرى الآخرين بغزوه. ويجب ألا ننسى أن التراجعات الحضارية التي حصلت في القرون الهجرية السبعة الأولى ـ مثلاـ لم تكن بسبب أي تدخل أي دولة غربية. كما أن في العالم الإسلامي دولاً لم تستعمر من قبل أي جهة، ومع هذا فإنها لا تتميز بأي شيء على الدول التي استعمرت. هذه الرؤية مهمة لبعث الشعور بالمسؤولية لدى الإنسان المسلم عما آلت إليه الأمور. ومهمة لوقفة مراجعة للنفس عوضاً عن البحث عن كبش فداء لأخطائنا وخطايانا. ويستطيع الخطاب الإسلامي الجديد توضيح هذا النقطة بالكثير من الشرح، وذلك من أجل وضع الأشياء في مكانها الصحيح، ومن أجل التخلص من الأوهام التي طالما سيطرت على الكثيرين منا. وأعتقد أن بعض الكُتَّاب المسلمين قد شرعوا فعلاً في بيان هذه الحقيقة، لكن تبليغها إلى معظم النّاس مازال يحتاج إلى الكثير من العمل.

د ـ المعضلة التي واجهت الأمة بالنسبة إلى الغرب كانت دائماً تتمثل في نوعية ما نقتبسه عن القوم، وما نعده شيئاً خاصاً بهم. وأعتقد أنه ليس هناك أي حلول جذرية لهذه المشكلة، وهذا يعود إلى العديد من الأسباب الموضوعية، والتي لاأرغب الآن في الحديث عنها؛ لكن علينا في كل الأحوال أن نحاول زيادة وعينا بهذه القضية على قدر الاستطاعة. وهذه بعض الملاحظات في هذا الشأن:

١ـ النموذج الذي تقدمه الحضارة الغربية للعيش شديد الإغراء، لكنّه يظل مجافياً لروح الثقافة الإسلامية ومجافياً لمقاصد الشريعة الغراء. وقد احتدم الجدل بين المصلحين المسلمين قبل ما يزيد على قرن ونصف حول ما نأخذه عن الغرب وما ندعه، وانعكس ذلك على الخطاب القومي والوطني. ونستطيع القول: إن الضغوط الأدبية التي تمارسها الحضارة المتفوقة من شأنها دائماً أن تمزق وحدة الصف ووحدة الموقف لدى أهل الحضارة المغلوبة. وزاد الطين بلة ما يمارسه الغرب اليوم بقيادة الولايات

المتحدة من ضغوط مادية علينا من أجل المزيد من التغيير الذي يؤدي إلى المزيد من التماهي مع الحياة الغربية على مستوى التعليم وحقوق الإنسان وقضايا المرأة وغيرها. ويبدو أن الاستعارة من الغرب، لا تشكل وحدها العامل الوحيد الذي يشتت صفوفنا، فهناك أيضاً الموقف من الماضي، وما نستحضره منه والموقف من تفسير أحداثه ووقائعه. وهذا ما لاحظناه في الصفحات الماضية عند حديثنا عن التراث والموقف منه. لن نستطيع توحيد الموقف تجاه الاقتباس من الغرب إلا إذا وحَّدنا رؤيتنا لحدود ذاتنا الثقافية، أو بعبارة أخرى أجبنا على تساؤلنا: « من نحن؟ » بأفضل درجة من الوضوح. إننا حين نملك الجواب على هذا التساؤل نستطيع أن نحدد ما الذي ينسجم مع هذه الذات من ثقافة الغرب ونظمه، وما يخدم مصالح الأمة، ويساعد على إصلاح أوضاعها. ويؤسفني القول: إن الخطاب الإسلامي بكل أطيافه لم يقدم للأمة ما تنتظره منه على هذا الصعيد. وهذا يعود إلى صعوبة الاقتباس وصعوبة اكتشاف الأرضية المشتركة التي تجمعنا مع الغرب. ونحن في الحقيقة في حاجة إلى تخصص كامل من أجل التغلب على هذه الصعوبات. وقد سمى بعض الباحثين ذلك التخصص «علم الاستغراب » وقدم فيه د. حسن حنفي أفكاراً جيدة، لكنها تحتاج إلى المزيد من الدقة والمزيد من الوضوح.

٢ ـ لو عدنا إلى رؤية سلفنا الصالح لمسألة التقدم والازدهار الحضاري لوجدنا أن التقرب إلى الله ـ تعالى ـ وتشرب القيم الإسلامية والامتثال للآمر الشرعي كان يشكل لديهم الأساس الذي يقوم عليه خروج الفرد والجماعة المسلمة من الوحشية والجاهلية إلى المدنية والحضارة. فكانت رؤيتهم تربط بين التطور الأخلاقي الإيجابي وبين التقدم. وبذلك كانت السمة الأخلاقية والإنسانية من أهم ما يميز الحضارة الإسلامية. الغرب يضغط علينا اليوم من أجل التخلي عن ذلك الارتباط الذي كان سائداً لدى السلف وإنشاء ارتباط جديد يقوم على الموازاة بين التطور التاريخي وبين التقدم. وبما أن الغرب

هو الذي يقود حركة التطوير العالمي، ويقود بالتالي حركة التاريخ فإن على المسلمين إذا رضخوا لضغوط الغرب الأدبية والمادية أن يتخلوا عن الكثير من ثوابتهم، وأن يرهنوا مصيرهم بمصير الغرب، كما أن عليهم أن يهيئوا أنفسهم للمزيد من احتقار الذات، والذي يتولد من الشعور بالتبعية وفقد السيطرة على المجال الخاص.

إن كثيراً من المثقفين المسلمين يعتقدون أننا إذا لم نتطور كما تطور الغرب، فإن واقعنا سيكون مظلماً، كما أن مستقبلنا سيكون أشبه بالعدم! ومن هنا فإن مهمتنا ستكون إعادة إنتاج الواقع الغربي، ولكن ذلك سيكون هذه المرة في بلاد المسلمين، كما أن علينا العمل على صيانة النظم الحضارية القائمة.

إذا أردنا أن نكون صادقين مع أنفسنا، فإن علينا أن نقول: إن تخلينا عن رؤية السلف في جعل التقدم الخلقي شرطاً للتقدم الحضاري يعد أهم الأسباب التي دفعت بالكثير من المثقفين إلى الاعتقاد بأنه لا خلاص من غير مواكبة الغرب والاحتطاب بحباله. وهذا يعني أن استعادة التوازن في هذه المسالة لن يأتي من وراء المزيد من التنظير، ولكن من وراء المزيد من العمل على كسر الجمود الذي أصاب أخلاقنا وثقافتنا والعمل على إيجاد أكبر عدد ممكن من البدائل التي توفر للفرد المسلم معظم احتياجاته الروحية والمادية.

سوف نتخلص من احتقار الذات والدوران في الفلك الثقافي للغرب إذا وجدنا أن ما نعده خصوصية ثقافية بالنسبة إلينا صار شيئاً قابلاً للتصدير وجذاباً للباحثين عن مخرج للأزمة العالمية الراهنة.

٣ ـ بما أن الغرب هو الذي يبدع النظم المختلفة، وهو الذي ينتج الآلات ويطور الأفكار، فإن شعوباً كثيرة ـ مسلمة وغير مسلمة ـ ستظل تشعر بالحاجة إلى الاقتباس منه والاستفادة من منجزاته، لكن نستطيع أن نلطِّف ـ ولو على المدى البعيد ـ من الآثار

السلبية التي تترتب على ذلك. إننا إذا نظرنا في وضعية الإصلاح لدينا عبر قرن من الزمان لوجدنا أن الخيار التصالحي التوفيقي لم يكن هو الخيار الأفضل، لأن الأمة المسلمة تشعر في أعماقها بأن هذا المقتبس صار بمثابة الغازي للبنية الاجتماعية القائمة، والمفكك للمنظومة الثقافية السائدة. هذا الشعور ليس شعوراً خاطئاً، وسببه ربما كان معروفاً، وذلك لأن الأخذ عن الآخرين كثيراً ما يثير الشكوك إلا إذا تم في إطار شروط معينة. ويبدو لي أن من تلك الشروط أن يتم الاقتباس ونحن في حالة توثب حضاري، أي لدينا خطة عمل ومنهجية وحركة دائبة. في هذه الحال يكون تقبل الأمة لكثير مما يؤخذ عن الآخرين أقل صعوبة، لأنها تشعر أنها قادرة على هضمه، وتكون القابلية آنذاك أشبه بقابلية طعام موضوع على النار يحتاج أن نضيف إليه شيئاً من الماء. وسيكون الأمر مختلفاً جداً حين نقتبس ونحن خاملون راكدون، نكرر الأخطاء، ولا نستبين السبيل. إن اليابان أخذت عن الغرب وهي في حالة انطلاق وفوران حضاري، فاستوعبت ما أخذته دون أن يؤثر كثيراً على بناها الثقافية المحلية، ودون أن يشوش وعيها بذاتها وتاريخها. وهكذا ينبغي أن نفعل.

من شروط الاقتباس الجيد كذلك أن نقوم به ونحن نحمل نفسية المحتاج إلى شيء بعينه، أي نقتبس ليس من باب التقليد أو على أساس أننا في حاجة إلى كل ما لدى الغرب، وإنما نقتبس ونحن واعون لعملية الفصل بين «العلم» و «الأيدلوجيا» وذلك حتى نستفيد من المنجز العلمي دون أن نقتبس فلسفة ذلك المنجز المغايرة لفلسفتنا ورؤيتنا للعلوم والثقافة. وهذه عملية شاقة جداً، ولا تكون أبداً كاملة وتامة. ولكن لنحاول فعل أفضل ما يمكن فعله. إذا سلمنا من الانبهار بما لدى الآخر، وانطلقنا من مفهوم عدم صواب نقل تجارب بأكملها من بلد إلى بلد أو من أمة إلى أمة، فإننا سنجد الطريقة الملائمة للتعامل مع الوافد وتوظيفه بما يخدم مصالحنا قدر الإمكان.